الأوبئةُ والطواعينُ عبر القرونِ الهجريَّةِ:

إذا أردنا أن نستعرضَ سويًّا -في طرح عاجل- الأمراض النازلة، والأوبئة الحاصلة، والجوائح الهائلة، التي حَلَّت بالأمة الإسلامية عبر قرونها التالدة، وأزمنتها الخالدة؛ لوجدنا أن الطواعين التي ذُكِرَت في التاريخ الإسلامي **أوَّلُها** طاعون شيرويه بالمدائن في عهد رسول الله ﷺ سنة (٦هـ)، وأشهرُها طاعون عَمواسَ بالشام، سنة (١٧هـ) في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخليفة الراشد العادل -رضي الله عنه-، وكان طاعونًا فظيعًا مروِّعًا مات فيه خمسة وعشرون ألفًا، وقد سُمِّي بطاعون عَمواسَ نسبةً إلى بلدةٍ صغيرةٍ، يُقَالُ لها: عَمواس، وهي بين القُدسِ والرَّملةِ؛ لأنَّها كانت أوَّلَ ما حصل الدَّاءُ بها، ثمَّ انتشر في الشَّام منها، فَنُسِبَ إليهَا، وكان حصولُ الطَّاعون في ذلك الوقت بعد المعارك الطَّاحنة بين المسلمين والروم، وكثرة القتلى، وتعفُّن الجو، وفساده بتلك الجثث -أمرًا طبيعيًّا، قدَّره الله لحكمةٍ أرادها، فكانت شدَّته بالشَّام؛ فهلك به خلقٌ كثيرٌ، منهم:

أبو عبيدة بن الجرّاح، وهو أمير النَّاس على الجيش، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعتبة بن سهيل، وأشراف النَّاس، وعاش المسلمون في ظل هذا الوباء أيامًا عصيبةً، حتى كانت نهايته على يد عمرو بن العاص -رضي الله عنه-؛ حيث خطب في الناسِ

فقال: «**أيُّها الناسُ، إنَّ هذا الوجعَ إذا وقعَ فإنَّما يشتعلُ اشتعالَ النَّارِ، فتحصَّنوا منه في الجبالِ**»[١٤]، وكأنّه يعني أن حال هـذا الوباء كحال النار؛ فإذا لم تجـد النارُ ما تحرقه خمَـدَت، فكانت نصيحته للناس أن يتفرقوا في النواحي فترةً مـن الزمن، وبهـذه النظرة السـديدة ارتفع الوبـاءُ بإذن الله وانتهى، ولعل في هذا التصرف من الصحابة الكرام حجَّةً لما تأخذ به الدول الإسلامية في وقتنا المعاصر؛ من تعليق الصلاة في المساجد، وغلق الأندية وأماكن الترفيه والتجمعات؛ حفاظًا على صحة الناس، وعدم تفشي المرض.

ثم كان طاعون الكوفة سـنة (٤٩هـ)، وفيه تُوفِّيَ المغيرةُ بنُ شعبة -رضي الله عنه-، والطاعون الذي مات فيه زياد ابن أبيه سنة (٥٣هـ)، وطاعون الجارف بالبصرة سنة (٦٤هـ)، وسُـمِّيَ بالجارف لكثرة من مـات فيه؛ فقد اجترف الموتُ فيه الناس اجترافًا كالسيل، واستمر ثلاثة أيام فقط، وطاعون مصر سنة (٦٦هـ)، وطاعون عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- فـي عام (٦٩هـ)، وبعـده الطاعون العام سـنة (٨٠هـ)، ثم طاعون سـنة وفاة عبد العزيز بن مروان (٨٦هـ)، ثم طاعون الفتيات في العراق وبلاد الشـام، سُـمِيَّ بذلـك لكثرة من مات فيه من الفتيات العذارى سـنة (٨٧هـ)، ثم طاعون الأشـراف بواسـط، وسُـمِّيَ بذلك لكثرة من تُوُفِّيَ فيه من أشراف القوم

(١٤) يُنْظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»: (٢٤٨/٤)، و«تاريخ الإسلام»: (٩٩/٢).

وأكابرهم، ثم طاعون عدي بن أرطاة سنة (١٠٠هـ)، هذه هي الطواعين التي كانت في القرن الأول الهجري[١٥].

وأما الجوائح التي حاقت بالأمة الإسلامية في **القرن الثاني** فقد حصل طاعون بالشام سنة (١٠٧هـ)، ثم طاعون عام (١١٥هـ) بالشام أيضًا، ثم طاعون البصرة عام (١١٩هـ)، ثم طاعون غراب سنة (١٢٧هـ)، ثم طاعون مسلم بن قتيبة الذي ضرب العراق والشام في عام (١٣١هـ)، وسُمِّيَ باسم أول من مات به، وقد وقع هذا الطاعون أول ما وقع في البصرة، واستمر لثلاثة أشهر، واشتد في رمضان؛ حيث كان يُحْصَى في بعض الأيام ألف جنازة، أو يزيد، كل هذه الطواعين كانت في عهد الدولة الأموية، وأما في عصر الدولة العباسية؛ فحصل طاعون الري عام (١٣٤هـ)، ثم طاعون بغداد سنة (١٤٦هـ)[١٦].

وأما في **القرن الثالث** الهجري فقد وقع طاعون بالبصرة سنة (٢٢١هـ)، ثم طاعون بالعراق سنة (٢٤٩هـ).

وأما عن طواعين **القرن الرابع** فقد حدث فيه طاعون سنة (٣٠١هـ)، ثم طاعون أصبهان سنة (٣٢٤هـ)، ثم طاعون سنة (٣٤٦هـ).

---

(١٥) يُنْظَر: «تاريخ خليفة بن خياط»: (صـ ٢٦٥)، و«تاريخ الطبري»: (٦١٢/٥)، و«تاريخ الإسلام»: (٩١٦/٢)، و«تاريخ الخلفاء»: (صـ ١٦٣).

(١٦) يُنْظَر: «المنتظم»: (٣٨٧/١٩)، و«المعارف»: (٦٠١/١)، و«المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة»: (٢٦٨/٣).

وأما عن الأوبئة في **القرن الخامس**؛ فقد حدث فيه طاعون البصرة سنة (٤٠٦هـ)، ثم طاعون عظيم ببلاد الهند، وقارة آسيا سنة (٤٢٣هـ)، ثم طاعون شيراز، وواسط، والأهواز، والبصرة، وبغداد سنة (٤٢٥هـ)، ثم طاعون بالموصل، والجزيرة، وبغداد سنة (٤٣٣هـ)، ثم طاعون بخارى الممتد لأذربيجان، والأهواز، وواسط، والبصرة، وسمرقند سنة (٤٤٩هـ)، ثم طاعون الحجاز، واليمن سنة (٤٥٢هـ)، ثم طاعون مصر سنة (٤٥٥هـ)، ثم طاعون دمشق سنة (٤٦٩هـ)، ثم طاعون سنة (٤٧٨هـ) الذي بدأ بالعراق، ثم عَمَّ الدنيا.

وأما عن الجوائح التي حصلت في **القرن السادس**؛ فقد اجتاح جفافٌ شديدٌ مدينتي فاس وغرناطة عام (٥٢٤هـ)، وفي عام (٥٢٦هـ) اشتدت المجاعة والوباء بالناس في قرطبة، وكثر الموتى وبلغ مُدُّ القمح خمسةَ عشرَ دينارًا، واستمرت موجاتُ الكوارث الطبيعية في العدوتين «الأندلس والمغرب»، وفي سنة (٥٧١هـ) وقع طاعون انتشر في بلاد المغرب، والأندلس، ويُعْتَبَر أشدَّ طاعون عرَفَهُ عصر الموحدين، فقد كان له نتائجُ كارثيةٌ، ولم يَسلَم منه أحدٌ، حتى إن أربعةَ أمراءَ من إخوة الخليفة يوسف بن يعقوب ماتوا فيه، بينما كان يموتُ بسببه ما بين (١٠٠)، و(١٩٠) من عامَّة الناس في اليوم الواحد، ثم طاعون بغداد سنة (٥٧٥هـ)، ثم فناءٌ في مصر بغير الطاعون سنة (٥٩٧هـ).

وأما **القرن السـابع**؛ فقد حدث فيه طاعونٌ بمصر سـنة ٦٣٣هـ)، وطاعـونٌ ببغداد وبلاد الشـام؛ بسـبب المقتلة عظيمة التي أوقعها التتارُ بالمسلمين سنة (٦٥٦هـ)، فمات خلقٌ كثيرٌ من تغيُّر الجوِّ، وفسـاد الريح؛ فاجتمع على الناس غلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون.

وأمـا **القرن الثامـن**؛ فقد حدث فيه طاعونٌ بمصر سـنة ٧٢٠هـ)، وفي سنة (٧٤٨هـ) تعرَّضت بلاد الشام لطاعونٍ جتـاح معظـم مناطقهـا، أُطْلِقَ عليـه «الطاعـون الأعظم»، سـمِّيَ بذلك لسعة انتشاره وشـدة فتكه، وأفنى هذا الطاعون سـكان مـدن: حلب ودمشـق والقدس والسـواحل، ثـم وباء سـنة (٧٤٩هـ)، الذي دخـل مكة، وهو سـبب تأليف مقامة ـن الوردي، والصفـدي، وكتاب ابن أبي حَجَلـةَ، ثم طاعون قاهرة، ودمشق سنة (٧٦٤هـ)، ثم طاعون سنة (٧٦٩هـ)، م طاعون بدمشـق سـنة (٧٧١هـ)، ثم طواعين كلها بمصر سـنة (٧٨١هـ)، ثم عاد سـنة (٧٨٣هـ)، ثم طاعون سـنة ٧٩١هـ)، ثم انتشـر في حلب داءٌ اسمه «الفناء العظيم» في ـام (٧٩٥هـ)، وقد حصـد بحصيلته النهائيـة (١٥٠) ألف خص من حلب وقُراها(١٧).

وأمـا عن الجوائح الهائلة التي وقعت في **القرن التاسـع**؛ د وقع وباءٌ بمصر أيضًا سنة (٨٠٩هـ)، وسنة (٨١٣هـ)،

) يُنْظَر: «العبر في خبر من غبر»: (١/٢٩٢)، و«النجوم الزاهرة»: (١٤/٣٣٨)، و«نيل ل في ذيل الدول»: (١/١٦٤).

ثم سنة (٨١٩هـ)، ثم سنة (٨٢١هـ)، ثم سنة (٨٢٢هـ)، ثم سنة (٨٢٧) بالقدس، ثم بمصر سنة (٨٣٣هـ)، وكان واسعًا، وسُمِّيَ بطاعون الفصل الكبير، أو الموت الأسود، وقد اجتاح جزءًا كبيرًا من العالم، ثم سنة (٨٤١هـ)، وسنة (٨٤٩هـ)، ثم طاعون سنة (٨٥٣هـ)، ثم طاعون سنة (٩٥٢هـ)، وسنة (٨٥٩هـ)، ثم طاعون سنة (٨٦٤هـ)، ثم طاعون سنة (٨٧٣هـ)، وطاعون سنة (٨٨٦هـ) بالأندلس، ثم طاعون سنة (٨٩٧هـ) بالقدس[١٨]. وأما عن **القرن العاشر** فقد وقع طاعون ببيت المقدس وما حولها سنة (٩٦٩هـ)، ثم سنة (٩٨٠هـ - ٩٨٢هـ)، ثم سنة (٩٨٧هـ)، ثم سنة (٩٩٥هـ).

وأما عن **القرن الثانيَ عشَرَ**؛ فقد وقع فيه طاعونٌ عامَ (١١٥٦هـ)، وعام (١١٧٤هـ)، وعام (١٢٠٠هـ) في بيت المقدس، وما حولها.

وأما عن **القرن الثالثَ عشَرَ**؛ فقد حدث في المغرب طاعونٌ عامَ (١٢١٢هـ)، والذي انتقل بالعدوى من التجار الذين حملوه معهم من الإسكندرية إلى تونس، فالجزائر، فالمغرب، وقد تفشى الطاعون في فاس، ومكناس، ووصل إلى الرباط، فكان يخلف (١٣٠) ضحية في اليوم، ثم وقع طاعون عام (١٢٢٨هـ).

(١٨) يُنْظَر: «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»: (٢١١/١٠)، و«نيل الأمل في ذيل الدول»: (٢٦٧/٤).

إلى غير ذلك من الأوبئة والطواعين التي لا يُحصَى عددُها[١٩].

وبالجملة فإن الأزمات والابتلاءات والمحن والأوبئة تعاقبت على الإنسانية عبر تاريخها الطويل، وإن البشرية خاضت غِمارَ الصراع مع الأمراض المُعدية منذ أزمنة بعيدة، وسجلت أسماء الأوبئة في صفحات التاريخ، وإن لهذه الأمراض النازلة والأوبئة الحاصلة تأثيراتٍ اجتماعيةً واقتصاديةً وسياسيةً ورُوحيةً وسلوكيةً، وإن لها أخطارًا كبيرةً تُصِيبُ الأمم والشعوب فتهلكها، وتُهَدِّدُ أمن الدول، وتؤذن بزوالها وإدبارها، فهي من بلاء الله الذي يُصيب به من يشاء، وسيفٌ من سيوفه المُسلَّطُ على عباده، يضربهم به بقصد الرحمة، أو النقمة، نسأل الله السلامة والعفو والعافية.

وقَد قَدَّمَ المؤرخون الذين عاصروا تلك الأحداث صورًا متنوعةً عن تلك الأوبئة وآثارها وعواقبها في سائر أرجاء العالم الإسلامي، مثل المقريزي، وابن تغري بردي، وابن كثير، وابن حجر، وابن إياس، وابن بطوطة، وابن عذاري المَرَّاكُشي، وغيرهم.

والمسلمون عبر تاريخهم المشرف يتعاملون مع الأوبئة

(١٩) للاستزادة يُنظَر: «الأمراض والأوبئة وآثارها على المجتمع المصري»، ليلى السيد عبد العزيز، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، و«الأوبئة والأمراض في المجتمع المصري»، لنسمة سيف الإسلام سعد، و«الأوبئة والتاريخ المرض والقوة والإمبريالية»، لشالدون واتس، طبع المركز القومي للترجمة، ومقال نفيس للدكتور محمد علي عطا بعنوان: «كتيبة الطاعون.. الجهود العلمية الإسلامية في مكافحة الأوبئة والطواعين».

بالإيمان بالله، والتوكل عليه، والأخذ بأسباب السلامة والمعافاة، وإننا كمؤمنين مطالَبون -إزاء هذا الوباء العالمي- بالعمل على الوقاية من هذا البلاء، ودرء أسبابه، وذلك بعد التوكل على الله، والأخذ بالأسباب، والتسليم بقضائه، عملًا بقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(البقرة: ١٩٥)

وإن المسلمين دومًا يتحركون وَفْقَ هدي سُنَّةِ نبيِّهم ﷺ في التعامل مع الطاعون: «**إذا سمعتُم به بأرضٍ؛ فلا تَقدَموا عليه، وإذا وقعَ بأرضٍ، وأنتم بها؛ فلا تخرُجوا فرارًا منه**»[٢٠]، وهذا الحديثُ النبويُّ فيه إشارةٌ واضحةٌ إلى ما يطبق اليوم علميًّا وعمليًّا من الحَجرِ الصحيِّ بهدف مواجهة الأوبئة المنتشرة، فرسول الله ﷺ لم يكتفِ بأن يأمُرَهم بعدم القدوم إلى الأرض الموبوءة، بل أتبعها بأن أمرَ من كان في أرض أصابها الطاعونُ ألَّا يخرج منها بقصد الفرار منه؛ وذلك لمنع انتشار العدوى؛ فينتقل الوباءُ إلى مناطق أخرى، وبذلك فإن هذا الحديث لفتةٌ إعجازيةٌ تُضَافُ إلى سجلِّ الطب النبوي.

وقد رجع سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في ضوء هدي هذا الحديث الشريف إلى المدينة، ولم يدخل الشام

(٢٠) متفق عليه، سبق تخريجه.

بعد أن كان قد قصدها، ولم يكن ذلك هربًا من الموت المقدر؛ إذ إنَّ عمر -رضي الله عنه- أجاب أبا عبيدة بن الجرَّاح -رضي الله عنه- عندما سأله عن سبب رجوعه إلى المدينة، قائلًا: أفرارًا من قدر الله؟ فأجاب عمر -رضي الله عنه-: «لو غيرك يقولُ هذا، نعم نفرُّ من قدرِ اللهِ إلى قدرِ الله»، وقد طلب الفاروقُ -رضي الله- عنه بعد ذلك من أبي عبيدة -رضي الله عنه- أن يرتحلَ بالمسلمين من الأرضِ الغَمِقةِ الَّتي تكثرُ فيها المياهُ والمستنقعاتُ إلى أرضٍ نَزِهةٍ عاليةٍ، ففعل أبو عبيدة -رضي الله عنه-، وفي ذلك درس في الأخذ بأسباب الوقاية من المرض والوباء، والابتعاد عن مصادره، وأماكن استفحاله، بينما بقيَ أبو عبيدة بن الجراح -رضي الله عنه- وغيره من الصحابة في الشام، ولم يخرجوا منها بعد أن أصابها الوباءُ.

وكان من نصائح عمر -رضي الله عنه- لهم أن يتفرَّقوا عن بعضهم، ولا يتجمَّعوا، حتى يقلل من نسبة انتقال العدوى، وحتى لا يُهلِكَهم المرض كجماعاتٍ، بل يُهلِكَ من كان مصابًا به من الأفراد، فيبقى الآخرون في معزِلٍ عن الإصابة به.

ويُستفاد من هذا وجوبُ الأخذ بأسباب الوقاية والعلاج، مع القناعة والاعتقاد بأننا نتقلَّبُ دومًا من أقدار الله إلى أقدار الله، والاعتقاد بأن في هذا المرض والبلاء أجرًا لمن أُصيب به، وصبَرَ عليه، وأن من قُدِّرَ عليه الموتُ بسبب هذا الوباء كُتب له أجرُ شهيدٍ، وتجنُّبُ أماكن العدوى، والالتزامُ بقواعدِ الحَجرِ

الصحـــيِّ التي تحددُها الحكومات، واحترامُ القوانين المنظِّمة لذلـك، وعدمُ الافتئـات عليها، والعمل بإرشـادات وتوجيهات الجهات الرسمية والهيئات الطبية؛ لأنها الأكثرُ معرفةً ودرايةً بتفاصيل المرض وآثاره، وذلك في كل بلد، والتكافلُ مهمٌّ بين بني الإنسان؛ للتغلب على هذا الوباء الخطير.

وقبـل أن نلوي عِنانَ القلمِ نرى أنه من المناسـب أن نذكُرَ في هذه التقدمة السريعة أنه يجبُ على المسلم أن يُطَبِّقَ قول النبيِّ ﷺ في حديثِ أبي هريرة -رضي الله عنه-: «**لا يُوردَنَّ مُمْـرِضٌ علَى مُصِحٍّ**»[٢١]، فالاختـلاطُ بالمرضى قد يؤثر إذا شـاء الله تعالى ذلك وقَدَّره، وقـد ينتقل المرضُ من المريض إلـى الصحيح بسـبب المخالطة، ونعتقـد أنَّ ذلك لا يكون إلا بـإذن الله وأمره، فالعدوى حاصلةٌ، ولكنها بتقدير الله، والله تعالى يقول:

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾

(القيامة:١٤)

وهـذا أمـرٌ لا ينبغي أن يختلف فيه اثنـان، وهذه الجراثيمُ التي تعملُ، إنما تعملُ أيضًا بتقدير الله، واللهُ يُسَلِّطُهَا على منَ يشـاء من خلقه، ومن واجبنا نحن المسـلمين ألَّا نُلْقِيَ بأيدينا إلـى التَّهلُكـةِ، وأن نأخُذَ بالأسـبابِ، ونتقيَ بمـا يحفظُنا من الأمراض من لقاحٍ، وتطعيمٍ، وكشـفٍ صحيٍّ، وما شابه ذلك، وأن نعتنيَ بنظافتنا الشـخصية، وبنظافـة أفنِيَتِنا، ونطهِّرَها

(٢١) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم: (٥٧٧١)، ومسلم برقم: (٢٢٢١).

من الحشـرات؛ مما يمكن أن يُنقَلَ المرضُ عن طريقه، يقول الإمام سَعِيدُ بْنُ المـُسَـيِّبِ -رضي الله عنه-: «**إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِـبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَـةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ، جَـوَادٌ يُحِبُّ الجُـودَ، فَنَظِّفُـوا أَفْنِيَتَكُمْ وَسَـاحَاتِكُمْ، وَلَا تَشَـبَّهُوا بِاليَهُـودِ تَجْمَعُ الْأَكْنَافَ** -وفي لفـظ: «**الْأَكْبَاءَ**»- **فِي دُورِهَا**»[٢٢].

والمـراد أنه إذا تقـرَّرَ أن الله تعالى طيـبٌ ونظيفٌ وكريمٌ وجوَادٌ؛ فطيِّبوا كل ما أمكن تطييبُه، ونظِّفوا كل ما سـهُلَ لكم تنظيفُـه حتى أفنيةِ الـدارِ، وهي الفضاءُ المتَّسـعُ أمام الدار، وهو كنايةٌ عن نهاية الكرم والجود، فإن ساحةَ الدار إذا كانت واسعةً نظيفةً كانت أدعى لجلب الضيوف، ولا تتشبهوا باليهود فـي قذاراتهم، وقـذارة أفنيتهم، ومن ثَـمَّ كان للمصطفى ﷺ وصحبه مزيدُ حِرصٍ على النظافة[٢٣].

ثم بعد أخذنا بالأسـبابِ، واستفراغِنا سُـبُلَ الوقايةِ وطرق السلامة، إذا وقع المرضُ فإنه يجبُ علينا أن نصبرَ ونحتسبَ، ونتوكلَ على الله، ونُسلِّمَ بالمقدورِ، ونلتمسَ الدواءَ من مَظانِّه، نسألُ الله تعالى العفوَ والعافيةَ والسلامةَ والسلامَ[٢٤].

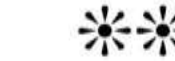

(٢٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم: (٢٧٩٩)، وقال: «هذا حديثٌ غريبٌ».

(٢٣) يُنظَر: «فيض القدير»، للمناوي: (٢/٢٣٩).

(٢٤) ينظـر مقال بعنـوان: «كتيبة الطاعون.. الجهود العلمية الإسـلامية في مكافحة الأوبئة والطواعين»، د/ محمد علي عطا، الشبكة العنكبوتية.